من المجازات البلاغية
لأبي عبيدة معمر بن المثنى
(110هـ / 210هـ) الربع الأول نموذجا

د/ علي فراجي

جامعة الجزائر: 01

كلية العلوم الإسلامية ـ الخروبة.

المقدمة:

إذا كان « الكتاب» لسيبويه يعد أول كتاب في العربية وصلنا، فإن تفسير أبي عبيدة « مجاز القرآن» يعد أول دراسة للقرآن الكريم في الميدان اللغوي تصلنا، والكتاب يعد مرحلة أولية من مراحل تطور النقد والدراسات البيانية لأسلوب القرآن الكريم وفي تطور الأدب العربي عامة. كما يُعد من الكتب التي تمثل مرحلة النشأة لعلم البلاغة. وإذ هو كذلك فهو يُعد كذلك مرجعا لكثير من الدراسات اللغوية والأدبية التي جاءت بعده، لأن الرجل علَم من أعلام اللغة والأدب في القرنين الثاني والثالث الهجريين ولا يصح إغفال إنتاجه في دراسة متعلقة بالقرآن الكريم. لأنه وهو من علماء الدراسات القرآنية في فترة تكوين العلوم الإسلامية كان بلاغيا بقدر ما كان مفسرا ولغويا. وهو في نظري واحد ممن أرسوا دعائم

علم البلاغة في تفسيره السالف الذكر. لأن الكتاب يحوي جملة من أنواع المجاز الاصطلاحي الذي هو قسيم الحقيقة، كالتشبيه والاستعارة والكناية والتقديم والتأخير والاستفهام. وعليه فإنني أتعرض لجهوده البلاغية من خلال الربع الأول من القرآن الكريم.

1) ـ مدلولات لفظ « المجاز » عند أبي عبيدة:

إن كتاب «مجاز القرآن» لأبي عبيدة يعد باكورة الدراسات اللغوية لأسلوب القرآن الكريم، ويكفي أن له السبق في طرح هذه التسمية «المجاز»، وهو إذ يمثل التيار اللغوي للتفسير، فقد تخللته بعض آثار البحث البياني، الذي عرف اتساعا كبيرا عند من جاء بعده. وعليه فإن المتصفح لكتاب «مجاز القرآن» يدرك أن أبا عبيدة يريد من مصطلح «المجاز» الدلالة الدقيقة لصيغ التعبير القرآنية المختلفة من الناحية اللغوية، وعليه فحسب بعضهم يريد من كلمة «مجاز» معناها اللغوي كالتفسير والمعنى، والغريب، والتقدير، والتأويل، وهي كلها بمعنى واحد. ويفسر هذا قول العسقلاني: (أن كلمة «المجاز» عنده عبارة عن الطرق التي يسلكها القرآن في تعبيراته، وهذا المعنى أعم بطبيعة الحال من المعنى الذي حدده علماء البلاغة لكلمة « المجاز» فيما بعد.)[1] ولذلك نجده يكثر من الاستشهاد على الآيات بالشعر العربي.

إن أبا عبيدة من خلال تفسيره فهم لفظ المجاز في مدلوله الأصلي وهو العدول عن استعمال اللفظ أو الألفاظ عن المعنى البسيط المتداول إلى معنى آخر يمت إليه بصلة ما، ولذا فإن كلمة مجاز عنده قد يعني بها

الاستعمال البلاغي، أو فنا أسلوبيا آخر تضمنه البحث البلاغي عند من جاء بعده. ولذلك نجده في أغلب الأحيان (أنه اختار الآيات التي تصور طرقا مختلفة في الصياغة والدلالة، ممثلا بما يشبهها من أشعار العرب وأساليبهم، وشارحا لما تتضمنه من لفظ غريب.)[2] هذه الاختيارات تمثلت فيما يكتنف الآية القرآنية من صور بلاغية كالاستعارة والتشبيه والكناية، (كما توسّع في تصوير الخصائص التعبيرية كالدلالة بلفظ الخصوص على معنى العموم، وبلفظ العموم على معنى الخصوص، وكمخاطبة الواحد مخاطبة الجميع، ومخاطبة الجميع مخاطبة الواحد، ومخاطبة الاثنين، وتنبه في ثنايا ذلك إلى الصورة العامة للالتفات، وإن لم يقترح لها اسمها الاصطلاحي.)[3] يقول :(ومن مجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الشاهد ثم تركت وحوّلت مخاطبته هذه إلى مخاطبة الغائب.)[4]

وبالنظر الجيد في الكتاب ندرك للوهلة الأولى (أن الفكرة التي تراود أبا عبيدة وهو يؤلف كتابه، كانت فكرة مدرسية يحاول أن يضع أمام طبقة المستعربين صورا من التعبير في القرآن، وما يقابله من التعبير في الأدب العربي شعرا ونثرا، ويبين ما فيها من التجاوز أو الانتقال من المعنى القريب أو التركيب المعهود للألفاظ والعبارات إلى معان وتراكيب أخرى اقتضاها الكلام. فكلمة «مجاز» عنده إذا ليست مجرد مقابل لكلمة تفسير)[5] لأن أبا عبيدة كما أسلفنا قد فهم المجاز في مدلوله الأصلي الذي يعني الانتقال من الاستعمال البسيط المتعارف عليه إلى استعمال آخر يمت إليه بصلة ما.

وعليه فإني أرى أن المجاز عند أبي عبيدة يحمل دلالتين: أما الأولى فبالمعنى التفسيري والشرح، وعندها فإن كلمة «مجاز» بهذا المفهوم تعني (التفسير والمعنى والتقدير والتأويل)[6] وربما هذا الذي عناه ابن تيمية عندما قال: (أول من عُرف أنه تكلم بلفظ المجاز أبوعبيدة معمر بن المثنى في كتابه، ولكن لم يعن بالمجاز ما هو قسيم الحقيقة، وإنما عني بمجاز الآية ما يعبر به عن الآية.)[7] أما الأخرى فبالمعنى البلاغي، إلاّ أن أبا عبيدة في كثير من المواقف لم يضع المصطلح البلاغي، وهذه من سمات مرحلة النشأة في الدرس البلاغي، و كان في بعض الأحيان يكتفى بوضع عبارات تشرح الظاهرة البلاغية، لأنه يعني بالمجاز التحول في مدلول الكلمة تحولا لغويا؛ فكان من ذلك بعض المظاهر اللغوية، كالانقلاب في المدلول إلى الضد، أو التغيير في الصيغة، أو التغيير في مدلول الاستفهام، وهذه المظاهر استقرت عند من جاء بعده ضمن علمي المعاني والبيان؛ أما علم البيان فكالتغيير في الصيغة لأنه عُدّ من المجاز اللغوي، وكالتغيير في مدلول الاستفهام لأنه عُدّ من علم المعاني. ويتحول المعنى تحولا بلاغيا ومن هذه التحولات، التقديم والتأخير، التشبيه، التمثيل، الاستعارة، الكناية.وهذه التحولات كذلك عرفت عند من جاء بعده ضمن علم البيان كالتشبيه والتمثيل والاستعارة والكناية، أما التقديم والتأخير فهو خاص بعلم المعاني. ودليل ذلك أنه صرّح بذلك في مواضع من الكتاب كقوله:(ومن مجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الشاهد ثم تركت وحولت مخاطبته هذه إلى مخاطبة الغائب.)[8] وهذه الظاهرة تعرف

عند رجال البلاغة بالالتفات، وهو من مواضيع علم البديع. وقد حده ابن المعتز بأنه(انصراف المتكلم من الإخبار إلى المخاطبة، ومن المخاطبة إلى الإخبار، وتلا قوله تعالى:« حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة» يونس.آ22.)[9] وكذلك كقوله عن قوله تعالى:« نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم» البقرة.آ223. قال: (كناية وتشبيه)[10] وكلتا الظاهرتين من علم البيان. والحاصل أن أبا عبيدة في كتابه « مجاز القرآن» يستعمل كلمة المجاز بمعناها الواسع بالنظر إلى من جاء بعده ولا عجب في ذلك فالكتاب تمتزج فيه اللغة والبلاغة والنحو، وكذلك كان الأمر عند علمائنا الأوائل فقد كانت الدراسة البلاغية محتواة في الدراسة اللغوية في كتب النحاة الأوائل.

كما ينبغي أن لا ننسى أن سبب وضع أبي عبيدة لكتابه «مجاز القرآن» مسألة بلاغية في القرآن الكريم تتعلق بظاهرة التشبيه، وهي في قوله تعالى:« طلعها كأنه رؤوس الشياطين» الصافات. آ: 65. فلا غرابة أن نجد أبا عبيدة يهتم بإيضاح الظواهر البيانية الموجودة في القرآن الكريم، ويجد لها ما يماثلها في كلام العرب وأساليبهم في التعبير. ومن أجل ذلك أردنا في هذا المقال أن نضع أيدينا على بعض المجازات التي قال بها أبو عبيدة بن المثنى و التي كانت الركيزة الأولى لعلم البلاغة ـــ لأن الكتاب يمثل مرحلة من مراحل تطور علم البلاغة ، ألا وهي مرحلة النشأة ـــ إما في البيان أو المعاني أو البديع، والتي كانت المرجع الأول لمن دلا بدلوه في هذا العلم بعده.

2) ـ علـم البيـان:

إن كلمة «مجاز» عند أبي عبيدة قد أخذت تحولات متنوعة، والتي منها التحول البلاغي حيث تجري الكلمة على مجموعة من المعاني، خصها البلاغيون من بعده بمصطلحات بلاغية كالتشبيه والتمثيل والكناية والاستعارة؛ التي لا يذكرها باسمها ولكن يأخذ بظاهر القول إلى أمد محدود غايته المعنى المجازي القريب. وحتى نثبت هدا الذي ذكرناه، فإنني أتعرض للربع الأول من القرآن الكريم مستنبطا من خلاله التحولات التي عرفتها لفظة «مجاز» عند أبي عبيدة، مركزا في ذلك كما أسلفت على التحول البلاغي بشقيه البيان والمعاني.

من المجازات التي قال بها أبو عبيدة والتي هي بمعناها البلاغي من سورة البقرة،الاستعارة وذلك في قوله تعالى:«وأشربوا في قلوبهم العجل» البقرة.آ: 93. يقول أبو عبيدة: (سقوه حتى غلبت عليهم، مجازه مجاز المختصر، أشربوا في قلوبهم العجل: حبُّ العجل)[11] وقوله مجاز المختصر أعتقد أنه يريد الاستعارة وذلك لما فيها من الاختصار، أو ما عرف عند من جاء بعده كالرماني (والتشبيه والاستعارة جميعا يخرجان الأغمض إلى الوضوح ويقربان البعيد، كما اشترط الرماني في كتابه، وهما عنده من باب الاختصار.)[12] أي حب عبادة العجل (ومعناه أنه داخلهم حب عبادته كما داخل الصبغ الثوب... وإنما عبر عن حب العجل بالشرب دون الأكل، لأن شرب الماء يتغلغل في الأعضاء حتى يصل إلى باطنها، ولهذا قال بعضهم:

ـ جرى حبها مجرى دمي في مفاصلي فأصبح لي عن كلّ شغل بها شغل

وأما الطعام، فقالوا: هو مجاور لها غير متغلغل فيها ولا يصل إلى القلب منه إلاّ يسير... وأسند الإشراب إلى ذات العجل مبالغة كأنه بصورته أشربوه.)[13] وإسناد الشرب إلى ذات العجل وهو ليس سائلا استعارة، لأن الذي يُشرب حقيقة هو السائل، أما مكان الإشراب فهو القلب وهي القرينة اللفظية المانعة من إرادة المعنى الحقيقي للشرب. وكذلك في قوله تعالى:« نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم». البقرة. آ: 223 يقول أبو عبيدة: (كناية وتشبيه)[14] دون توضيح ولا تحليل، ولكنه يكفي أنه ذكر الظاهرتين في هذا الوقت المبكر من مسيرة الدرس البلاغي، وتبعه من جاء بعده وقال إنها استعارة،(ومنه ـ أي من الاستعارة ـ «نساؤكم حرث لكم » أي مزدرع لكم كما تزدرع الأرض.)[15].

ويذكر ظاهرة التشبيه ويقف عندها مطولا، وذلك في قوله تعالى:«ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع». البقرة.آ 170. يقول أبو عبيدة: (وإنما الذي ينعق الراعي ووقع المعنى على المنعوق به وهي الغنم؛ تقول: كالغنم التي لا تسمع، التي ينعق بها راعيها. والعرب تريد الشيء فتحوله إلى شيء من سببه، يقولون: أعرض الحوض على الناقة، وإنما تعرض الناقة على الحوض.)[16] وعلى هذا الأساس يكون التقدير (ومثل الذين كفروا في عدم فهمهم عن الله وعن رسوله كمثل

المنعوق به من البهائم التي لا تفقه من الأمر والنهي غير الصوت، فيراد بالذي ينعق الذي ينعق به فيكون هذا من المقلوب عندهم. قالوا: كما تقول: دخل الخاتم في يدي الخف في رجلي. وكقولهم: عرض الحوض على الناقة، وأوردوا مما ذكروا أنه مقلوب جملة.)[17] هذا حسب تفسير أبي عبيدة، لأن الذي عليه بعض العلماء، أن القلب لا يكون إلاّ في الشعر.

أما التشبيه الذي قصده أبو عبيدة في قوله تعالى: « نساؤكم حرث لكم» . البقرة. آ223 فلأن الله تعالى (شبههن بالمحارث تشبيها لما يلقى في أرحامهن من النطف التي منها النسل بالبذور)[18] وهو كما ترى تشبيه بليغ حيث حذف منه الأداة والوجه، وقال أبوحيان:(ويحتمل أن يكون «حرث لكم» بمعنى محرثة لكم، فيكون من باب إطلاق المصدر ويراد به اسم المفعول)[19] وبهذا فهو من المجاز العقلي لوقوعه في الإسناد.

أما الكناية فهي في قوله تعالى: «فأتوا حرثكم أنّى شئتم» (من الكنايات اللطيفة والتعريضات المستحسنة، وهذه وأشباهها في كلام الله آداب حسنة، على المؤمنين أن يتعلموها ويتأدبوا بها، ويتكلفوا مثلها في محاوراتهم ومكاتباتهم)[20] ومن باب الكناية التعريض؛ الذي تستعمله العرب في كلامها للوصول إلى مبتغاها بوجه ألطف من التصريح، ونجد أبا عبيدة يتطرق إلى التعريض دون أن يذكره، وجعل منه ـ أي التعريض ـ قوله تعالى:« ولا جناح عليكم فيما عرّضتم به من خطبة النساء أو أكننتم في أنفسكم».البقرة.آ: 235. فيكتفي بقوله:(أي من عدّتهن أن تقول: إني أريد أن أتزوجك وإن قُضي شيء كان.)[21] وقوله: (إني أريد...) هذا

كله يدل على التعريض بالخطبة، والعزم على الزواج منها دون أن يصرح. كما ورد مصطلح الكناية بمعناها البلاغي ولكن هذه المرة يصرح بها وذلك عند قوله تعالى: «أو جاء أحد منكم من الغائط». النساء.آ:42. يقول أبو عبيدة: (كناية عن حاجة ذي البطن)[22] فهي كما ترى كناية عن موصوف من ريح وبول ومني وودي، ثم يردف ذلك بشرح المعنى اللغوي للغائط فيقول: (والغائط الفيح من الأرض المتصوّب وهو أعظم من الوادي.)[23] وجاء عن أبي حيان في الموضوع قوله:(ومجيئه من الغائط كناية عن الحدث بالغائط، وحمل عليه الريح والبول والمني والودي.)[24] وفي قوله تعالى: «أو لامستم النساء». النساء.آ:42. لم يصرح بمصطلح الكناية ولكنه اكتفى بقوله: (اللماس النكاح لمستم ولامستم أكثر)[25] يريد الجماع، لأنه قال في موضع آخر:(وكذلك قوله تعالى: «أو لمستم النساء » كناية عن الغشيان.)[26]

ومن باب المجاز الذي هو قسيم الحقيقة فقد ذكره أبو عبيدة بمعناه اللغوي وليس الاصطلاحي، وقد جعل منه قوله تعالى:« ليس البرّ أن تولّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكنّ البر من آمن بالله». البقرة.آ:177. يقول أبو عبيدة: (فالعرب تجعل المصادر صفات، فمجاز البر هاهنا: مجاز صفة لـ: « من آمن بالله» وفي الكلام: ولكن البرّ من آمن بالله.)[27] وظاهر يريد من قوله « وفي الكلام» الحقيقة التي هي قسيمة المجاز، وعليه فإن الآية السالفة الذكر فيها مجاز مرسل وعلاقته التعلق الاشتقاقي وهو إقامة صيغة مقام أخرى ويندرج تحت هذه العلاقة

(إطلاق المصدر على اسم الفاعل، ومنه قوله تعالى: « ولا يحيطون بشيء من علمه». البقرة. آ: 255. مجاز مرسل علاقته التعلق الاشتقاقي؛ إطلاق المصدر على اسم المفعول؛ أي معلومه)[28] كما جعل منه كذلك قوله تعالى:« حرّمت عليكم الميتة والدّم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردّية والنّطيحة.) المائدة.آ:3. يقول أبو عبيدة:(النطيحة مجازها مجازالمنطوحة حتى ماتت.)[29] وهو كما ترى مجاز عقلي أطلق الصفة وأراد اسم المفعول. ومنه كذلك قوله تعالى : « أن ينزل علينا مائدة من السماء »المائدة آ:112. يقول أبو عبيدة:(أصلها أن تكون مفعولة فجاءت فاعلة، كما يقولون تطليقة بائنة، وعيشة راضية، وإنما مِيد صاحبها بما عليها من الطعام، فيقال: مادني يميدني، قال رؤبة: إلى أمير المؤمنين الممتاد؛ أي المستعطَي المسؤول به، أمتدتُك، ومِدْتني أنت.)[30] ثم يشرح ذلك ويقول:(إنها في المعنى مفعولة ولفظها فاعلة وقال: هي مثل عيشة راضية، وقال: إنما المائدة من العطاء والممتاد المفتعل المطلوب منه العطاء.)[31] كما يذكر أبو عبيدة هذا المجاز ـ المجاز العقلي ـ في موضع آخر وذلك في قوله تعالى: «والنهار مبصراً». يونس. آ:67. قال أبو عبيدة: (له مجازان أحدهما : أن العرب وضعوا أشياء من كلامهم في موضع الفاعل، والمعنى أنه مفعول؛ لأنه ظرف يفعل فيه غيره، لأن النهار لا يبصر ولكنه يُبصر فيه الذي ينظر، وفي القرآن «في عيشة راضية» الحاقة.آ21. وإنما يرضى بها الذي يعيش فيها .

قال جرير:

لقد لمتنا يا أم غيلان في السّرى ونمت وما ليل المطيّ بنائم

والليل لا ينام وإنما يُنام فيه. وقال رؤبة: فنام ليلي وتجلّى همّي).[32]

وقد عدّه ابن قتيبة من باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه ولم يجعله من المجاز، وجعل منه قوله تعالى:« في عيشة راضية» الحاقة.آ:21. يقول: (ومنه أن يجيء المفعول به على لفظ الفاعل كقوله تعالى (في عيشة راضية) أي مرضي بها.)[33]

ويتعرض أبو عبيدة للمجاز المرسل دون أن يذكر المصطلح، وذلك في قوله تعالى: «وأرسلنا السماء عليهم مدرارا». الأنعام.آ:6. قال أبو عبيدة: (مجاز السماء هاهنا مجاز المطر، يقال مازلنا في سماء أي مطر، وما زلنا نطأ السماء؛ أي إثر المطر، وأنّى أخذتكم هذه السماء؟ ومجاز أرسلنا أنزلنا وأمطرنا.)[34]

3) ـ علم المعاني.

أما ما يخص علم المعاني فلأبي عبيدة كذلك نظرات وإسهامات جليلة أتخذها من جاء بعده ركائز شادوا عليها صرح علم البلاغة.

لقد تطرق أبو عبيدة في هذا المجال إلى الحديث عن بلاغة الخبر الذي خرج مخرج الاستفهام، حيث جعل منه قوله تعالى:« إنّ الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون». البقرة.آ:6. يقول أبو عبيدة: (هذا كلام هو إخبار خرج مخرج الاستفهام، وليس هذا إلاّ في

ثلاثة مواضع، هذا أحدها، والثاني: ما أبالي أقبلت أم أدبرت، والثالث: ما أدري أولّيت أم جاء فلان.)[35] فظاهر قوله أن الآية « أأنذرتهم أم لم تنذرهم» وردت في أسلوب خبري رغم تصدرها باستفهام الذي هو من خصائص الأسلوب الإنشائي، ولكنه خبر خرج مخرج الاستفهام، لأنه إخبار بانتفاء إيمانهم على تقدير إنذارك وعدم إنذارك سواء، وقد صحب الهمزة التسوية. وهو من نوع الاستفهام الذي عبّر عنه من جاء بعده من علماء البلاغة بالخروج عن مقتضى ظاهر الاستفهام إلى معان تستفاد من سياق الكلام، وما يستفاد من الآية هو استفهام التسوية؛ وهو الاستفهام الداخل على جملة يصح حلول المصدر محلها، والذي حدّه أبو عبيدة بأن يكون بعد لفظة (سواء) أو (ما أبالي) أو (ما أدري). كما لا يفوتني أن أنبّه القارئ أن أبا عبيدة وفي تلك المرحلة المتقدمة قد أدرك الفارق بين الأسلوب الخبري والأسلوب الإنشائي، وقد تبين لي ذلك من خلال مناقشته لقوله تعالى: «لا تضارُّ والدة بولدها» البقرة. آ: 233. يقول: (رفع خبر، ومن قال «لا تضارَّ» بالنصب؛ فإنما أراد: (لا تضارِرْ) نهي.)[36] ومعلوم من ظاهر قوله (خبر) أي أسلوب خبري؛ لأنك رفعت وبالتالي فـ: (لا) نافية؛ وهي التي تدخل على الفعل المضارع ولا تعمل فيه. وقراءتك بالنصب؛أي أنك جزمت الفعل وبالتالي فـ: (لا) ناهية؛ وهي التي تدخل على الفعل المضارع وتعمل فيه. والفعل بعدها مجزوم بها، وإذ هو نهي فهو غرض من أغراض الأسلوب الإنشائي.

كما تناول مسألة الاستفهام التقريري وذلك بتناوله ظاهرة خروج الإنشاء عن حقيقة معناه ليعبر عن معنى آخر يفهم من السياق؛ كالتقرير أو التحذير أو الإنكار.

أما التقريري فقد جعل منه أبوعبيدة قوله تعالى:«أتجعل فيها من يفسد فيها.» البقرة.آ: 30. يقول أبو عبيدة: (جاءت على لفظ الاستفهام، والملائكة لم تستفهم ربّها، وقد قال تبارك وتعالى:«إنّي جاعل في الأرض خليفة»البقرة.آ:30. ولكن معناها معنى الإيجاب؛ أي أنك ستفعل. وقال جرير فأوجب ولم يستفهم لعبد الملك بن مروان:

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

وتقول وأنت تضرب الغلام على الذنب: ألست الفاعل كذا؟ ليس باستفهام ولكن تقرير)[37] ومن أمثلة ما خرج عن الاستفهام إلى التقرير كذلك قوله تعالى:«أولوكان آباؤهم لايعقلون شيئا». البقرة.آ:170. يقول أبو عبيدة: (الألف ليست ألف استفهام أو الشكّ، إنما خرجت مخرج الاستفهام تقريرا بغير الاستفهام أي وإن كان آباؤهم.)[38] أما الاستفهام الذي خرج إلى معنى التحذير فيمثل له أبو عبيدة بقوله تعالى:

«أأنت قلت للناس اتخذوني وأمّي» المائدة. آ:116. يقول أبو عبيدة:(هذا باب تفهيم وليس باستفهام عن جهل ليعلمه، وهو يخرج مخرج الاستفهام، وإنما يراد به النهي عن ذلك ويتهدد به وقد علم قائله أكان ذلك أم لم يكن، ويقول الرجل لعبده: أفعلت كذا؟ وهو يعلم أنه لم يفعله ولكن يحذّره.)[39]

ومن أمثلة الاستفهام الذي خرج إلى معنى الإنكار قوله تعالى: «أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم.» البقرة.آ:44. (الهمزة للاستفهام وضعا وشابها هنا التوبيخ والتقريع، لأن المعنى الإنكار عليهم وتوبيخهم على أن يأمر الشخص بخير ويترك نفسه.)[40] فعبادة المنحوتات واقعة، وكذلك أمر الناس بالبرّ، فالتوبيخ واقع عليهم بالإنكار عن أفعالهم، وهو الذي نعته ابن هشام في صدد ذكره لمعاني الهمزة، بالإنكار التوبيخي.[41]

والإطناب من ظواهر علم المعاني، فمثلما أحبّ العرب الإيجاز فحذفوا عند أمن اللبس، لم يستنكروا الإطناب حين تدعو الحاجة إليه، كتوكيد بعض الكلام. وقد أشار أبو عبيدة إلى مكان الإطناب من غير تسمية وجعل منه قوله تعالى:«فصيام ثلاثة أيّام في الحجّ وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة». البقرة.آ: 196. يقول أبو عبيدة: (العرب تؤكد الشيء، وقد فرغ منه، فتعيده بلفظ غيره تفهيما وتوكيدا)[42] وقد أكّد ذلك في موضع آخر بأن التوكيد الذي قصده، من باب علم البلاغة لا من باب علم النحو ولذلك عدّه من المجاز ذلك بأن قال:(ومن مجاز المكرر للتوكيد قوله تعالى:« رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين». يوسف.آ: 4. أعاد الرؤية. وقال: «أولى لك فأولى». المدثر.آ: 35,34. أعاد اللفظ.)[43] والإطناب اصطلاحا هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة؛ والمراد بالفائدة الغرض، هذه الفائدة أو الغرض قد تكون إيضاحا، أو توكيدا أو لزيادة التنبيه، أما غرض الإطناب الذي أشار

إليه أبو عبيدة في سورة يوسف هو التوكيد. وقد سبق أن بيّنا أن أبا عبيدة ذكر الإطناب بمعناه اللغوي لا باسمه الاصطلاحي .

وقد تعرض أبو عبيدة للتقديم و التأخير، وعدّ الظاهرة كذلك من المجازات التي تستخدمها العرب في كلامها، وذلك لغرض بلاغي مما يكسب الكلام جمالا وتأثيرا في النفوس، وقد أشار إلى أماكنه في القرآن الكريم و تنبّه إليها، ولكنه لم يكن يذكر السبب البلاغي الذي حصل من أجله التقديم والتأخير، وقد جعل منه قوله تعالى:«فريقا كذّبوا». المائدة.آ:70. قال أبو عبيدة: (مقدم ومؤخر مجازه كذّبوا فريقا.)[44] وكذلك قوله تعالى:«وفريقا يقتلون». المائدة.آ:70. قال:(مجازه يقتلون فريقا.)[45] وجعل منه كذلك قوله تعالى:« بربّهم يعدلون». الأنعام.آ:1. يقول أبو عبيدة:(مقدم ومؤخر، مجازه يعدلون بربّهم؛ أي يجعلون له عِدْلا، تبارك وتعالى عمّا يصفون.)[46] وكذلك قوله تعالى :« وأجل مسمّى عنده .» الأنعام.آ:2. يقول أبوعبيدة:(مقدم ومؤخر، مجازه وعنده أجل مسمى أي وقت مؤقت.)[47] دون أن يذكر الغرض الذي جاء من أجله هذا التقديم والتأخير، الذي ذكره في ما بعد الزمخشري في هذه الآية نفسها ولكن من باب علم النحو، يقول:(فإن قلت المبتدأ النكرة إذا كان خبره ظرفا وجب تأخيره، فلم جاز تقديمه في قوله: (وأجل مسمى عنده)؟ قلت لأنه تخصص بالصفة فقارب المعرفة.)[48] أما السكاكي فقد ذكر الغرض من باب علم المعاني وجعل السبب في ذلك أن (الظرف بتأخره عن المنكر يكون بالحمل على الوصف أولى منه بالحمل على

الخبر؛ لأمرين يتعاضدان في ذلك: استدعاء المنكر في مقام الابتداء أن يوصف ليتقوى بذلك فائدة الحكم. وصلاحية الظرف أن يكون من صفاته؛ ولذلك لا يجب تقديم الظرف على المنكر إذا كان موصوفا، قال تعالى : « وأجل مسمى عنده الأنعام».آ:2.وأن هذا التقديم ملتزم مع مبتدأ غير مصدر.)[49]

ومن مظاهر علم المعاني كذلك أسلوب الالتفات، فقد تنبه أبو عبيدة إلى هذا الأسلوب وإن لم يسمّه، كأن يقول: ومن مجاز ما جاءت به مخاطبة الشاهد ثم تركت وحوّلت مخاطبته هذه إلى مخاطبة الغائب قوله تعالى: «حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة». يونس.آ:22. أي بكم.)[50] أما الظاهرة بمعناها الاصطلاحي فقد تعرض لها السكاكي في المفتاح حيث يقول: (واعلم أن هذا النوع، أعني نقل الكلام عن الحكاية إلي الغيبة، لا يختص المسند إليه، ولا هذا القدر بل الحكاية والخطاب والغيبة ثلاثتهما ينقل كل واحد منها إلى الآخر ويسمى هذا النقل التفاتا عند علماء المعاني.)[51] وقد جعل منه أبو عبيدة قوله تعالى: « مالك يوم الدين. إيّاك نعبد وإيّاك نستعين. اهدنا.» الفاتحة. آ: 6.5.4 يقول: (ومجاز من جرّ مالك يوم الدين) أنه حدث عن مخاطبة غائب، ثم رجع فخاطب شاهدا، فقال: « إيّاك نعبد وإيّاك نستعين اهدنا » قال عنترة بن شداد العبسي:-

شـطت مزار العاشقين فأصبحت عـسرا عليّ طلابك ابنة مخرم) [52]

ولكنه لم يذكر السبب الذي من أجله وقع الالتفات. ولعلنا نجد السبب عند الزمخشري عندما قال: (فإن قلت: لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب؟ قلتُ: هذا يسمى الالتفات في علم البيان، قد يكون من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم،... وذلك على عادة افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه، ولأن الكلام إذا نُقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد، وقد تُختص مواقعه بفوائد، ومما خُص به هذا الموضع أنه لما ذُكر الحقيق بالحمد، وأجرى عليه تلك الصفات العظام تعلّق العِلم بمعلوم عظيم الشأن، حقيق بالثناء، وغاية الخضوع والاستعانة في المهمات، فخوطب ذلك المعلوم المتميّز بتلك الصفات فقيل:« إيّاك» يا من هذه صفاته نخصُّ بالعبادة والاستعانة: لا نعبد غيرك، ولا نستعينه؛ ليكون الخطاب أدلّ على أن العبادة له؛ لذلك التميز الذي لا تحق العبادة إلاّ به.)[53]

ومن فنون علم المعاني الاختصار، ويلجأ إليه عند أمن اللبس للإيجاز، والإيجاز صفة محمودة من صفات الكلام عند العرب، والقرآن خير ممثل لهذه الصفة في أسلوبه، وقد أشار أبوعبيدة إلى كثير من مواضع الحذف في آياته، وجعل منه قوله تعالى:« فأما الذين اسودّت وجوههم، أكفرتم بعد إيمانكم.» آل عمران.آ: 106. يقول أبو عبيدة: (العرب تختصر لعلم المخاطب بما أريد به، فكأنه خرج مخرج قولك: فأما الذين كفروا فيقول لهم: أكفرتم ، فحذف هذا واختصر الكلام، وقال الأسدي:ـ

كذبتم وبيت الله لا تنكحونها بني شاب قرناها تصرّ وتحلب

أراد بني التي شاب قرناها.

وقال النابغة الذبياني:ـ

كأنّك من جمال بني أقيش يقعقع خلف رجليه بشنّ

«بني أقيش حيّ من الجن، أراد: كأنك جمل يقعقع خلف الجمل بشنّ، فألقى الجمل، ففُهم عنه ما أراد».)[54]

الخاتمة:

من خلال ما تقدم فإننا نستنتج أن الكتابات البلاغية المبثوثة في تفسير أبي عبيدة «مجاز القرآن» تتسم بمجموعة من السمات و الخصائص العامة التي نستطيع إدراجها حسب ما توصل إليه علماء البلاغة إلى يومنا هذا تحت عنوان غياب المنهج العلمي، وهذا طبيعي لأنها مرحلة النشأة، وقد تمثلت هذه السمات في عدم التبويب، واضطراب مدلول المصطلحات، واختلاط القضايا البلاغية بموضوعات العلوم الأخرى، وإلى حد ما عدم تمييز علوم البلاغة الثلاثة بعضها عن بعض؛ وهذه الأخيرة حسب علمي استمرت دون تمييز إلى غاية القرن السادس الهجري حيث فصل فيها القول أبو يعقوب يوسف السكاكي (555هـ/ 626هـ) في كتابه مفتاح العلوم.

الهوامش:

1 ـ ابن حجر العسقلاني /ـ فتح الباري؛ تح . عبد العزيز بن عبد الله بن باز.. دار المعرفة،.ج–8, ص: ..425.

2ـ د. شوقي ضيف / البلاغة تطور وتاريخ .– دار المعارف: مصر، ص: .30. ط /10.

3ـ المرجع السابق نفسه.

4ـ أبو عبيدة / مجاز القرآن؛ تح . محمد فؤاد سزكين .– مؤسسة الرسالة ،ج /1 . ص: 11 ..

5ـ سلام محمد زغلول / أثر القرآن في تطور النقد العربي.– دار المعارف .: مصر، ص: 43/.44.

6ـ أبو عبيدة /مجاز القرآن ، ص: 18.

7 ـ ابن تيمية / كتاب الأيمان ، ص:35.

8 ـ أبو عبيدة /مجاز القرآن ، ص: 11.

9 ـ ابن رشيق . / العمدة . ج /2 .– دار الطلائع .: القاهرة، 2006, ص: 40.

10 ـ أبو عبيدة / مجاز القرآن . ج /1,ص: 73.

11ـ المصدر السابق نفسه .ج /1, ص: 47.

12ـ ابن رشيق / العمدة . ج /2،، ص: 238.

13 ـ أبو حيان / تفسير البحر المحيط. ج /1 ؛ تح . الشيخ عادل أحمد عبد الموجود؛ الشيخ محمد معوض.– دار الكتب العلمية: بيروت، ص: .476.

14 ـ أبو عبيدة / مجاز القرآن. ج /1 .، ص: 73.

15 ـ ابن قتيبة / تأويل مشكل القرآن ؛ شرحه ونشره السيد محمد صقر.–ط /2.– دار التراث : القاهرة، 1973 ،ص: .141.

16 ـ أبو عبيدة / مجاز القرآن. ج /1،،ص: 63.

17ـ أبو حيان /تفسير البحر المحيط. ج /1 ، ص: 657.

18 ـ الزمخشري / تفسير الكشاف . ج /1, مراجعة. يوسف الحمادي.– مكتبة: مصر، ص:241.

19ـ أبو حيان / تفسير البحر المحيط. ج /2 ، ص: 180.

20 ـ الزمخشري / تفسير الكشاف . ج /1 ، ص: 241.

21 ـ أبو عبيدة / مجاز القرآن . ج /1 ن ص: 75.

22 ـ المصدر السابق نفسه، ص: 128.

23ـ المصدر السابق نفسه ، ص: 128.

24 ـ أبو حيان. تفسير البحر المحيط. ج /3. ص: 269.

25 ـ أبوعبيدة/ مجاز القرآن. ج /1, ص: 128.

26 ـ المصدر السابق نفسه، ص: 155.

27 ـ المصدر السابق نفسه ،ص:65.

28 ـ علوم البلاغة/ أحمد مصطفى المراغي.– المكتبة العصرية: بيروت، ص: .214.

29 ـ أبو عبيدة/مجاز القرآن. ج /1. ص: 151

30 ـ أبو عبيد./ مجاز القرآن . ج /1, ص: 183.

31 ـ المصدر السابق نفسه، هامش ص: 183.

32 ـ المصدر السابق نفسه ، ص: 279.

33 ـ ابن قتيبة/ تأويل مشكل ، ص: 296

34 ـ المصدر السابق نفسه . ص: 186.

35 ـ المصدر السابق نفسه. ص:31.

36 ـ أبو عبيدة / مجاز القرآن. ج /1, ص: 75.

37ـ المصدر السابق نفسه ، ص: 36.

38 ـ أبو عبيدة/. مجاز القرآن. ج /1, ص: 63.

39 ـ أبو عبيدة/. مجاز القرآن. ج /1,. ص: 184.

40 ـ أبو حيان / تفسير البحر المحيط.، ج /1, ص: 338.

41 ـ ابن هشام/ مغني اللبيب.– تح . محمد محي الدين عبد الحميد.دار الطلائع: القاهرة، 2005, ج /1, ص: .40.

42 ـ أبو عبيدة/ مجاز القرآن. ج /1, ص: 70.

43ـ المصدر السابق نفسه. ص: 12.

44 ـ أبو عبيدة. مجاز القرآن. ج/1. ص: 173.

45 ـ المصدر السابق نفسه. ص: 70.

46 ـ المصدر السابق نفسه. ص: 185.

47- المصدر السابق نفسه.ص: 185.

48 ـ الزمخشري. الكشاف . ج/2.ص: 79.

49)ـ السكاكي . مفتاح العلوم. ص: 323. ت/ عبد الحميد هنداوي. دار الكتب العلمية. بيروت . 1420هـ./2000م.

50 ـ أبوعبيدة . مجاز القرآن. ج/1. ص: 11.

51 ـ السكاكي . مفتاح العلوم. ص: 296.

52 ـ أبو عبيدة . مجاز القرآن . ج/1. ص: 23.

53 ـ الزمخشري. الكشاف. ج/1. ص: 20.

54 ـ أبوعبيدة . مجاز القرآن. ج/1. ص: 101.